آخر أيام الخطيئة

1

اعتاد سعيد مراقبة المنتظرين من موقعه بالطابور حيث يتسلى بتخمين الحجرة المناسبة لكل منهم. أحدهم استلم نتيجته متوجسًا ووقف في انتظار دخوله للطرقة الطويلة. كانت الوجوه مكفهرة من حوله، باعثة على التجهم، لكنه لم يكن خائفًا. شعر بأنه سيتمكن من التخفف من الثقل حين يسلم أوراقه.

في وسط القاعة وقف رئيس المراقبين، يتفحص الجميع ويتأكد من سير العمل كما ينبغي. تتراص المقاعد بشكل دائري، دائرة داخل الأخرى. حيث الجميع في مواجهة الجميع. لا خصوصية لأحد هنا، فلا قيمة للتواري عن الأعين المحدقة. في الحقيقة، لا قيمة للتحديق كذلك.

وصل سـعيد أخيرًا للشـباك الصغير، قدم أوراقه في صمت ثم توجه لأقـرب مقعـد في انتظار النتيجـة. طال ترقبه، حتـى أن معظم من حوله توجهـوا للحجرات الخاصة بهم، وانتهى بعضهم من العقاب ومضوا في طريقهم. ظل وجه سعيد هادئًا، وجه ملائكي رجولي لا يخفي وراءه شيئًا. كان يعرف أنه سينتظر أكثر من الجميع في هذه المرة، فقرار الصفح لن يكون أبدًا بسهولة الإدانة.

الردهة الدائرية الضخمة شبه خالية، فلقد انتهت طوابير اليوم. طلاؤها الأبيـض ناصع كأنه مطلي لتوِّه. قديمًا كان عليهم قضاء الكثير من الوقت في انتظار النتيجة. لكن النظام استطاع اختصار ساعات الانتظار الطويلة، واعتمد صيغة جديدة لاستمارات صُمِّمَت لتسهيل الأمر على المُحكّمين، فيسـهل الفرز والعقاب. ليس عليهم سـوى ملء الاسـتمارات بصدق، والإشارة للخطأ المقترف بعلامة صح ثم تقديمها.

في أقصى يسار الردهة طرقة جانبية عريضة يغلقها مصراعا باب كبير. يتفرع منها عدة طرقات تؤدي إلى حجرات العقاب. يعرف سـعيد المكان جيـدًا، كل من في البلدة يعرفونـه، وتقريبًا تلقوا عقابهم في كل الحجرات الموجودة بالتناوب. يأتون كل عام واسـتماراتهم ملأى باعترافاتهم بخط يدهم. بعد توالي السـنوات وخبرة النظام بخطاياهم، عدَّلوا الاستمارات لتشمل كل ما يمكن تخيله من أخطاء.

طالت جلسة سعيد في الردهة، حتى أنه أوشك أن يكون الوحيد من منتظري العقاب. فمال برأسه لأعلى متأملاً السقف. كان زاخرًا بنقوش الطاهرين الذين نجوا بعد الموت لنقاء نفوسهم. يطيرون في سماء بلا أجنحة، والابتسامات الهانئة تزين شفاههم. حجرات العقاب مرسومة بعناية على الحواف، وأبوابها مفتوحة. ورغم أنه تأمل الرسم هذا عشرات المرات، لكنه لأول مرة يدرك أن تلك الأبواب هي مخارج مضمونة لنعيم الطائرين.

حاول تخيل مصيره بعد الموت وهو من قرر ألا يعبر للفردوس من تلك الأبواب. فكر أنه من الممكن فتح باب جديد غير مرتبط بالألم والعقاب، باب خاص به ولمن يتحمل من بعده. فكر كثيرًا فيمن سبقوه إلى هناك دون عقاب مسبق، الناس من الأرض الثانية مثلاً، أمه التي فرَّت إليهم، كيف تلقت عقابها بأثر رجعي؟ ما مدى ألمها وندمها؟ أطرق برأسه، فكلما تذكر أمه يصمت ويلهي ذاكرته بمكان آخر.

انتبه لخروج رجل ضخم من باب أقصى يمين الردهة، يحمل بيده أوراقًا كثيرة. توجه مباشرة نحو رئيس المراقبين وهمس في أذنه بشيء ما يبدو أنه خاص بسعيد، لأن كليهما نظر إليه، ثم انسحبا إلى الداخل معًا.

خرج الرجل الضخم ثانية، وتوجه نحو سعيد الذي دوّى قلبه بعنف، كأن الرجل يخطو خطواته الثقيلة من داخله. نهض معه وسار بمحاذاته حريصًا على ألا يسبقه، حتى لا تخذله قدماه ويهوى وراءه. وصلا أخيرًا إلى

مكتب التحقيقات. حجرة مربعة، يتوسطها مكتب وراءه ثلاثة مُحكِّمين، أحدهم أشقر وشعره الذهبي طويل خلف كتفيه.

انطلقت نظراتهم كالسهام، حتى أنه مال برأسه للأمام، ورفع يدًا على عينيه كأنه يحمي نفسه. أصبحت أفكاره مبعثرة وشعر أنه منقاد لمصير لا يريده. لكن فات وقت التراجع الآن.

أجلسوه على كرسي صغير مقابل لهم. كانت أقدامهم عارية بلا أحذية أو جوارب. تساءل سعيد إلى أي مدى يمكن لرجال حفاة أن يكونوا مؤذيين، لم يساعده هذا في زعزعة القلق أو تنظيم اهتزازات قلبه. تبادلوا النظرات، وأعطتهم نظرة سعيد المنخفضة نحو أقدامهم انطباعًا بأنه خانع لهم. سأله الأشقر:

- أنت "سعيد ساكن"؟

أومأ سعيد برأسه. حدَّث الأشقر من بجانبه بصوت منخفض ثم سأله إن كان قدم أوراقه لهذا العام؟ وإن كان صادقًا بما جاء به؟

تنحنح المحقق الآخر، ورشف رشفة صغيرة من كوب ماء أمامه. كانوا يصمتون قليلا بين السؤال والآخر، كأنهم يحاولون إضفاء الهيبة على مجلسهم المُصغَّر. كانوا حائرين، لا يعلمون ما عليهم فعله بـ سعيد. فلم يسبق لأحد في تاريخ النظام أن قدم استمارته فارغة بلا أي خطأ محتمل. لكنهم استمروا بالتحقيق، فقال المحقق الثاني:

– هل تمزح معنا يا سعيد؟

حاول سعيد ألا يبدو مرتعبًا، لكن خانه صوته وخرج مذعورًا:

– بالطبع لا. أنا لا أحب المزاح.

– إذًا تسخر منا!

– ولماذا أفعل هذا؟! أنا رجل هادئ تمامًا يا سيدي ولا أحب المشكلات.

لم يكن انهيار سعيد متوقعًا حتى لنفسه. لم يختبر هشاشته من قبل. فقد ارتجفت يداه حين بدؤوا في توجيه الاتهامات. اضطربت أنفاسه وبهت سلامه النفسي، حتى أنه شعر بسقوط ملامح وجهه، تداخلت حواسه ثم تداخلت تمامًا. لم يبق له شيء، لوهلة أحس أنه لم يعد قادرًا على الرؤية، وأن محجري عينيه مجوفان عاريان يمكنهم سكب سائل لزج بهما إمعانًا في تعذيبه. تبعته الهلاوس واستمرت حتى أفاق في حجرة مظلمة، لا يعرف كم مضى فيها. خمّن أنهم اصطحبوه إليها وتركوه محمومًا بمخاوفه التي كادت تأكله. أعادوه إلى حجرة التحقيقات بعدما فاق تمامًا. واستأنف المحققان:

– لقد فحصنا أوراقك يا سعيد.. رجعنا لبرج مراقبتك وتأكدنا مما دونته.

نهض الأشـقر من كرسـيه وحام حوله، لم يستطع سعيد النظر لقدميه العاريتين لشدة قربه منه. مال المحقق عليه حتى كاد يلصق فمه بوجه سعيد الذي اعتقد أنه سيلثمه أو يعضه، فابتعد بحركة غريزية. دخل سؤال المحقق لعقله مباشرة بصوت عميق:

– لِمَ لا تعيش حياة عادية كالآخرين يا سعيد؟

حاول سـعيد الابتعاد برأسـه قليلاً، لم يسـتطع، فتحدث بهمس غير مقصود:

– أنا أعيش بالفعل يا سيدي.

– وكيف ذلك؟

– هكذا، أتنفس وأتناول طعامي وشرابي وأذهب لعملي.

اعتدل الأشقر وابتعد بخطوات صغيرة عنه، كانت في يده أوراق، خمَّن سعيد أنها أوراقه، وودّ لو ينتزعها منه ويأكلها لينتهي الأمر. لكن لم يمهله المحقق واستأنف ملوِّحًا بها:

– انظر يا سعيد، أوراقك فارغة تمامًا. لم تملأ أيًّا من الخانات المطلوبة، كيف لك أن تحيا دون خطايا؟

– لأني لم أفعل أيًّا منها.

– إذًا مـاذا فعلت؟ أنت لا تعيش مـا دمت لا تمارس الحياة. من أجل هذا تأتي إلى هنا، تقدم أوراق خطاياك ونحن نطهرك منها. نطبق القانون ونعاقبك، فتخرج وكأنك ولدت من جديد. هل تعلم يا سعيد أنه لا يوجد في القانون ما ينص على ترك الخانات دون ملئها؟

ارتبك سعيد، فرك كفيه وقال خائفًا:

– معذرة يا سـيدي، لكن لا يوجد في القانـون عقوبة لمن قدم أوراقه دون خطايا كذلك.

تبـع جملته الأخيرة صمت. كانت حالة سـعيد هـي الأولى منذ عقود طويلـة. يُقال إن رجلًا واحدًا قدم أوراقه فارغة من قبل، ولا أحد يعرف مصيره، لم يُكتب أي شيء عنه في السـجلات بعد فعلته هذه. وهذا يعني أن ما جرى له ظلّ غير معلوم، وبالتأكيد أشـد ألمًا من أن يُذكر في أوراق يمكن للجميع الاطّلاع عليها.

لم يعرف سعيد عن هذا الرجل شيئًا ولم يحاول البحث. كل ما رغبه هو مُضيّ يوم عبوره لعامه الجديـد، دون حجرات مظلمة أو وخزات مؤلمة، فقـضى عامه الأخير يتجنب الخطايا. لم يقف أمام مرآته عاريًا، حتى أنه لم يطل النظر إلى وجهه بها، لم يحادث أي امرأة ولم يسـمح لنفسه بالاستمناء قط. لم يشاهد أي مشهد جنسي، وتوقف عن التفوه بنكات خارجة. لم يسافر بصحبة الأصدقاء، ولا سهر ليلاً على المقاهي المحيطة. كان ملتزمًا لأقصى

حد، لا يتكلم إلا قليلاً ولا يأكل سوى بصمت متواريًا عن الأعين. حتى أنه لم يشــتر ملابس جديدة. تقشف تمامًا. لم يصرخ، لم يشتكِ، لم يضحك إلا لمامًا، رغم كل ذلك لم يأمن العقاب.

قاده الحراس لحجرة دائرية صغيرة، جدرانها كالحة دون دهان. كانت بلا نوافذ، فقط طاقة صغيرة في أعلى الجدار تسمح بقليل من الهواء. حتى الباب لم يكن محددًا بإطار يميزه من الداخل. حين هبط الليل، أضاؤوا لمبة سهاري صفراء تعكس جسده كخيالات مخيفة على الجدران من حوله.

تخيل سعيد أن الرجل الذي ترك استماراته خالية منذ عقود قضى ليلته الأولى هنا أيضًا. حاول محاكاة مخاوفه وتساؤلاته حول مصيره. كان مرتعبًا، يفتش في نفسه عن حماسته التي قادته لهناك. حضرت أمه برأسه مرة أخرى. إنه ولدها الوحيد، فكيف يمكنه إنقاذ نفسه من هذا الفخ؟ إنه فخ الجينات الذي جعله متمردًا دون قصد. لكنها أقوى، فكر أنها بالطبع لا بد أن تكون الأقوى، ومن سواها يحمل الجينات الأصلية لكسر الأنظمة؟!

اضطجع ساندًا رأسه بيديه وحدق باللمبة الصفراء في السقف. كانت مثل اللمبات الصغيرة المتسربة من شباك شديد الصغر، ما زال يذكره من طفولته. كانت أمه جالســة بجواره في المطبخ تعدّ الأطعمة. وضوء مهتز يبدو كشموس ضئيلة لا تقوى على اجتياح الظلام الكثيف لمناور المطابخ الساكنة في الليل. اعتادت الغناء أثناء ممارستها عملاً يدويًا، لكنها في تلك

الليلة تحديدًا لم تدندن. لم ينس إطلاقًا ملامحها الغليظة التي تأمَّلها خلسة وهو مستند بيده على إطار الشباك الصغير.

كان الهواء منعشًا، يخبطه في وجهه. فانحنى للأمام كثيرًا حتى تدلى نصفه العلوي خارج الشباك، وأرجح ذراعيه بحرية كأنهما منفصلان عن جسده. لم يشعر بنفسه إلا عندما صفعته أمه على مؤخرته بقوة، وتعالى زعيقها به. في ذلك اليوم جمع جسده تحت غطاء سريره، كانت أسنانه تصطك بقوة، فاقترب من روحه أكثر ونام.

لم تكن حادة كما يتذكرها، لكنها كانت صارمة. اقتربت أكثر فأكثر من العبوس الكامل قبل رحيلها. لم تمت، لم تصله أي برقية تفيد أنها قد ماتت، وإن كان يرجح ذلك. أو لا يعرف، ربما يتمنى موتها، لكنه لا يعترف لنفسه بهذا، يخفي الأمر بداخله ويواريه عن أفكاره. لكنه في هذا المحبس لم يعد قادرًا على الادِّعاء.

في يوم طويل وجدها قد رحلت، هكذا، أفاق على سريره ولم يجدها. بهتت صورة والده وهو يهرول من حجرة لأخرى لاقتفاء أثرها حتى اختفت. طاردته في أحلامه دومًا، جالسة في ردهة منزلهم الصغيرة، أمام باب حجرته الأبيض الذي كان يتخذه مرسمًا له. يراها شفافة في صباح رائق، وقدماها ملفوفتان بدخان رقيق، تطلب منه الرسم بطول الباب. ثم تراقبه بفخر وبيدها إبرة كروشيه حمراء دقيقة وبعض الخيوط. وعند

انتهائه، تنهض، وتُقبِّله قبلة واحدة فحسب، ثم تفتح الباب وتخرج منه. في كل مرة ينوي ألا ينهي الرسم أبدًا حتى تبقى جالسة أمامه للأبد.

وحيد وسط سجنه، تحت اللمبة الصفراء الواهنة، ارتعد جسده. لطالما رغب في الابتعاد عن مصير أمه، ليجد نفسه في النهاية يسير على خطاها، لكن بخطوات مذعورة أقل جرأة وأكثر إذلالاً. حتى أنه لا يتذكر إن كان يشبهها في ملامحها أم لا. ولأول مرة يقر أنه حقًا يتمنى عودتها واصطحابه معها. ثم تعالى نحيبه.

2

قبل شروق شمس اليوم الأخير لـ أمين، اصطحبه الحراس لغرفة صغيرة ملحقة بالسجن. لم يكن أمين يحب إطلاق لفظة "سجن" على المكان الذي مـضى به عدة أسـابيع بعد القبض عليه، لكنه لم يجد وصفًا آخر له. سـأل أحد الحراس في مرة عن اسـم المكان، فأجابه إنه "الفرجة". فسـخر أمين منه كثيرًا على مدى أيام.

جرأتهم في الالتفاف حول أصل الشيء هو ما أثار احتقاره نحوهم دومًا. تلك البذرة القذرة التي يغرسونها في النفوس عن العقل المضلل الذي لا يمكنه الرؤية بنفسه. فيصبح وضع إنسان ما في حجرة كالحة لفترة طويلة ليس سجنًا، بل هو إفراجة لعقل لن يُنقَّى سوى بغلقه. بقدر ما كره أمين

تسمية ما حل به بـ"الاحتجاز"، إلا أنه لم يترك فرصة تمر دون إثارة ضيقهم وترديد كلمة "سجن" على مسمع ومرأى من الجميع.

في الحجرة الصغيرة، كان المُحكِّمون جالسين كعادتهم خلف الطاولة، وأقدامهم دون أحذية. ظل أمين يشتت عقله بعيدًا عن القلق من نتائج التحقيقات بفكرة أنهم قد ولدوا هكذا. جاءت الأمهات المنذورات ليكنَّ والدات للمحكمين، وفتحن أرجلهن وأسقطن أجنتهن فوق تلك الكراسي. وترعرعوا فوقها، محتجزين داخل منظومتهم وداخل أحكامهم، يحتسون إكسير الشباب الذي يستخرجونه من نضح المرتعبين بحجرات العقاب، ويخترعون الخطيئة.

بصوت آلي رنان، ألقى أحدهم خطابًا أجوف لم يتحرك له أمين. كان فقط يأمل معرفة حكمهم دون إذعان لهم. وللهروب من فخ الاصطناع، شرد ببصره قليلاً عنهم ليواري توجُّسه.

– لقد فرغت من حياتك هنا يا أمين.

قال المحكم بعد انتهاء الخطاب. فتهكم أمين:

– إذًا انتهت الإفراجة أخيرًا؟

– بالفعل لقد انتهت، أنت الآن لم تعد في عداد الحياة الآدمية. لقد جرَّدناك من رتبتك العليا.

صمت أمين قليلاً وفكر أن الرتبة التالية لن تكون سيئة للغاية.

مع شروق شمس اليوم التالي قيَّدوه وغمُّوا عينيه. أركبوه سيارة وساروا في طرق مستوية في البداية، ثم بدأت الطرق تنعطف بعضها على بعض ولم تعد الأرض بنفس الاستواء. حين وصلوا أخيرًا بعد ساعات طويلة قضاها أمين ما بين غفوات وإفاقات قصيرة، خلعوا الغمامة عن عينيه، نظر للشمس وعرف أنهم اتجهوا جنوبًا. كانوا أمام غابة صلعاء تقريبًا، شجرها قصير وأوراقها قليلة، أسفلها الأغصان المتغضنة متشابكة وحادة.

اقترب منه رجل ضخم وخلع عنه ملابسه بالكامل، حتى حذاءه الذي حاول أمين التمسك به، خلعه من قدميه. كان المحكم المصاحب له يراقبه من السيارة.

يتدرج الظلام أسفل الأشجار المتقاربة، يكسره أشعة شمس تمكنت من النفاذ هنا أو هناك. كل ما يجول في عقل أمين هو الظلام الفعلي الذي سيهبط بعد قليل. دار حول نفسه مستكشفًا المكان، وبقدم حذرة سار نحو سفح جبل أسود عالٍ يلامس السحاب، يبدو من وراء الأشجار كقيء سماوي. كل ما يأمله هو إيجاد شق جبلي صغير دون ثعابين يضمه، إلى أن يتمكن من التفكير كحيوان ينتمي إلى غابة.

***

ضيق جدًا الأمل الذي عاش به سـعيد في منفاه. حين رحلوا بالسيارة وتركـوه عاريًا على أطراف الغابة، لعـن كل شيء. وما لبث أن هدأ حتى استكشـف المكان حوله، واستطاع تسلق شـجرة كثيفة الغصون، وقضى ليلته الأولى آرقًا فوقها.

لم يأمل في الكثير أثناء رحلة بحثه عن مكان آمن من الحيوانات يختبئ داخلـه. لم يكن متأكدًا إن كان للحيوانات المفترسـة وجود بالفعل أم لا. لكنه بقي خائفًا يتلفت حوله باستمرار. تغذى على أوراق الشجر واستطاع صنـع واقٍ من الأوراق الجافة ليحمـي قدميه اللتين تقرحتا من الجروح. لم يرَ سوى حيوانات صغيرة كالأرانب والسناجب والفئران، وحيوانات أخرى لم يعرف لها اسمًا لكنها لم تهدده. وعلى الأشجار بعض الطيور والبوم والثعابين الصغيرة التي تهرب مسرعة حين يقترب منها. طمأنه ذلك قليلاً وإن ظل حذرًا. بعد عدة أيام، تمكن من إيجاد بركة ماء صغيرة، فنهل منها وصورة التماسيح لا تفارقه.

لجأ إلى سفح الجبل في النهاية، باحثًا عن مخرج لمأزقه. كان يلقي باللوم على نفسـه في كل التفاتة، حتى ضاقت أنفاسـه وكاد يوقفها. تسلق الجبل قليلاً من أقل زواياه انحدارًا، وقرح جسده تنغزه. تراءى له فراشه الدافئ والمصباح الأخضر الصغير بجانبه الذي كان يسهر عليه متأملاً فراغ الحجرة، كانت مغامرة كهذه لتبدو أبعد كثيرًا كثيرًا عن حياته في ذلك الوقت. أثناء

صعوده وجد منبسطًا صغيرًا كدرجة سلم، تقف فوقه أرانب جبلية محدقة بـه. ثم جرت من أمامه وصعدت منحدرًا صغيرًا، فصعد وراءها. كانت ممتلئة بسـعادة وذيولها الصغيرة أثارت شـهيته، فأسرع على أمل اصطياد أحدهـا. مضى في أثرها حتى وصل لمدخل كهف، اضطره للانحناء ليرى ما بداخله.

كان كهفًا صغيرًا، سقفه عالٍ في بطن الجبل، لم يكن ليتمكن من رؤيته بمفرده من الخارج لولا الأرانب التي فرت إليه. حين قرر دخوله بعد قليل من التردد اكتشف أن مدخله عالٍ عن أرضه قليلاً، فكان عليه القفز مسافة قدَّرها بمترين. الهبـوط لمكان آمن لم يكن فكرته عن الأمان، كيف يكون النزول للظلام مهربًا من المجهول؟ لم تكن فكرة مجدية، وكاد أن يسـتدير ليعود للسهل أمام الجبل. لكنه كان قد قضى أيامًا كثيرة بالعراء وفلت الرعب من عقاله مرارًا. إنها حياته الآن وعليه الاختيار ما بين الأكثر رعبًا والأقل بدرجات. حسم أمره وجلس على حافة المدخل والصخور الصغيرة المدببة تنغز مؤخرته العارية. تحسس بأطراف أصابع قدميه المكان أسفله وانزلق بحرص. لم يكن منحدرًا أو بعيدًا عن الأرض كما توقع.

وقف بداخله يتأمل المكان، كان المدخل كنافذة عالية سمحت للضوء بالتسلل للداخل. وحتى اعتادت عيناه على الإضاءة الخافتة لضوء المغيب، كان قد تأكد تمامًا أن هناك من سكن هذا الكهف قبله، وأنه لم يكن ساكنًا

عابرًا. لا بد أنه قضى الكثير هنا، وإلا كيف تسنَّى له أن ينحت ذلك الكرسي الصغير داخل صخور الجبل؟ وذلك المتكأ البدائي المفروش بجلد حيوانات صغيرة متراصة بعناية صانعة فِراشًا صغيرًا، يبدو أنه كان يستريح فوقه. جلس عليه قليلاً قبل أن يسري خدر هادئ بجسده جعله يستلقي مطمئنًا، وفروة أرنب بيضاء ناعمة مستقرة أسفل قدميه، داعبها مرة ثم استسلم وأطبق جفنيه.

في الصباح التالي، أيقظته الشمس التي تعامدت مباشرة على وجهه في بداية يومها. كان الكهف كله منيرًا تمامًا. وقف في المنتصف محاولاً ترتيل صلوات لم يقتنع بها مؤخرًا. لم تكن تبدي نفعًا من قبل، لكنها الآن مستحقة.

وجد أن المكان متسع، به بعض أدوات الصيد المصنوعة من الحجارة والأخشاب، وبعض الفراء الصغير الذي يصلح لأن يكون جوارب. في أحد الأركان آثار نار كانت مشتعلة يومًا ما. بالتأكيد شوى فوقها الطعام من سكن المكان من قبل. كانت الأرانب تمرح بجانبه دون خوف ولم يستطع تفسير ذلك.

وحين رفع عينيه لأعلى، وجد نقوشًا وكلامًا ورسومات على الجدران، بخطوط متعرجة لكنها واضحة. وجملة مكتوبة بجانب المدخل "أنا الإنسان الأول ربّ الكهف". فعرف سعيد أنه كان إنسانا وحيدا تمامًا، ربما لم يخرج

من كهفه قط سوى لإحضار الماء وجلب الأخشاب للتدفئة والطهي.

لم يمـضِ الكثير حتى اكتشـف الكهف بأكملـه. كان آمنًا له، فهدأت مخاوفه وفرك جبهته مشحونًا بمشاعر مرتبكة. مهانته فادحة، كلما تشتت عقله بالسير فوق الأغصان المتكسرة والتيه حول الجبل، وشعر بالإذلال أثناء المُضيِّ وراء حيوان ليصطاده، أو الانكفاء على وجهه ليشرب شربة ماء من بركة راكدة، تضاءل جسده أمام تلك المهانة. ظل يحلم أنه يتقزَّم حتى يصل إلى حجم عقلة الإصبع ويختبئ أسفل أوراق الشجر ويأكل الديدان. في الكهف لسـعته عبرات ساخنة بعينيه أحرقت زوايا العين الداخلية ولم تسقط سوى بعد فركها.

نهض كحيوان جريح ليبدأ مهمته اليومية المقدسة، البحث عن الطعام. لو أن له أمنية واحدة فحسب في هذه الدنيا الجديدة، فإنه يأمل الامتلاء حد الشـبع للأبد، لا يجوع ثانية. أمسك أرنبًا كان مجاورًا له، تحسسه وتساءل إن كان تناول إفطاره. احتار قليلاً وهو يبادله النظر، فكر أن هذا الأرنب الذي على وشك الذبح الآن أسعد منه حالاً لأنه لم يُطرد من غابته ويتظاهر بأنـه كائـن آخر. ذبحه أخيرًا بعد سـأمه من التداعي. ثم بدأ يعلم نفسـه كيف يشعل نيرانًا، واستخدم الأدوات الحادة التي وجدها ضمن أدوات الصيد. شعر أنه ممتن تمامًا للإنسان الأول هذا، وتمنى بشدة أن يكون على قيد الحياة، ربما يصطاد هنا أو هناك وسـيعود في أي وقت للكهف. وكلما

وجد أداة تساعده في حياته الجديدة هذه، ازداد امتنانًا وقال في نفسه "إن عاد سأكون خادمًا وتابعًا له".

مضت أسابيع ولم يرَ سعيد أي بشري. كان يدرك أنه لم يعد إنسانًا بحسب قرار المحكمين، لكنه أيضًا ليس حيوانًا بقرار حياته الجديدة. كان قد ملَّ من لحوم الأرانب ولم يعرف كيف يصطاد أي كائن آخر. كما أنه لم يرَ أي حيوان آخر يمكن التهامه، وسرح بفكره في لحم الغزال الذي طالما ودّ تذوقه، لكن أين هذا الغزال هنا؟ ورغم رغبته الشديدة في إيجاد طعام جديد والبقاء حيًا لكنه لم يبتعد عن الكهف إلا مسافة صغيرة نحو بركة الماء.

قضى وقته بالكهف يقرأ ما كتبه الإنسان الأول، ويتأمل الرسومات المنحوتة. كان أكثر رسم مكرر لإنسان يطير بأجنحة وراء ظهره، ذكّره هذا بالرسومات في سقف ردهة العبور. بدا له إنسانًا حائرًا لا يجد مهبطًا له. بحث عن رسم لأبواب مفتوحة حوله، فوجد أبوابًا موصدة. أما الكتابات فكانت كمذكرات، لكنها غير مُفصَّلة. فهم سعيد أن الكتابة كانت أصعب من الرسومات لصلابة الصخور، لذلك كانت أقل وغير معبرة. فقط مجرد تسجيل لبعض أيامه وكيف استخرج بعض الدهانات من الثعابين ليشفي جروحه. كان سعيد مأخوذًا بالإنسان الأول، يحاول تخيله، وطفقت فكرة برأسه أنه هذا هو الرجل الذي سبقه في ترك استماراته فارغة. شهق حين وصل لذلك الاستنتاج، ودار حول نفسه عدة دورات غير مصدق

ما ذهب إليه. لقد تشابكت مصائرهما وتقابلا عبر الزمان في مكان واحد، كأنه فعل كل هذا ليناوله لـ سـعيد كاملاً، كترحيب وإيمان به. كان يسعى للخلود عبر تسـليم رايته لمن يأتي بعده، ورسوماته وكلماته تنم عن ذلك. أنارت الفكرة عقله وبدأ ينظر حوله من جديد وكأنه يرى كل شيء لأول مرة. تأمل رسوماته أيامًا طويلة وأدرك أنه ندم على ما خطا إليه. لقد كانت خطوطه مهزومة وحائرة، تصوره محلقًا دائمًا ولا يحط في مكان قط.

نسي سعيد في خضم أفكاره المتخبطة في بعض الأحيان نحت التقويم على الصخـر، فتوقف تمامًا. أكثر ما افتقده هو التحدث مع شـخص ما، مشاركته اكتشافاته حول تاريخ من سبق وانحاز لنفسه ضد النظام. ثم أسف للخسارة، فلا فائدة للاكتشافات سوى بنقلها للآخرين. استعاض عن الناس بالأرانب التي كانت دائمًا بصحبته، رغم أنه يصطاد منها ويسلخ جلودها ويشـويها أمام المتبقي منها، لكنها لم تترك الكهف رغم ذلك، بل ازدادت كلما نقص منها. كان يحدثها ويحكي لها عن حياته في المدينة. واكتشف أنه لم يكن يملك حياة، وأن المحقق الأشقر كان محقًا في بعض ما ذهب إليه. لقد كان خائفًا من العقاب طوال الوقت، يملأ استماراته والذنب يطارده. ثم حين قرر التوقف عن اقتراف أي خطايا، كان شعورًا بالإثم يملؤه كذلك، لكنه اتجاه النظام الذي نشأ عليه. فكر أن ذلك الإحساس ولد معه، وازداد حين تركته أمه. ورغب بشدة في العودة ليخطئ من جديد.

إلى أن عثر على أمين. كان يسير في اتجاه بركة الماء، ولحيته طالت لتصل إلى صدره. اعتاد العبث بشعرها الطويل وترديد صلواته طوال الطريق. في البداية لم يصدق أنه سمع صوتًا بشريًا واهنًا، وظن أنه خياله النشط. ثم توقف حين سمع تكرار الصوت، نظر حوله بحذر، فوجد جسدًا عاريًا ملقيًا على الأرض.

كان أمين محمومًا ملقى على وجهه وعظامه بارزة، حتى يمكنك أن تلتقط ضلعًا من أضلعه وتصوبه نحو طائر فتطعنه. ألجمته المفاجأة، ثبت مكانه ولم يستطع التصرف. لم يتسع أمله قط في الآونة الأخيرة لإيجاد بشري. حمله برفق بين ذراعيه وصعد به بصعوبة حتى وصل للكهف. أجلسه على حافة مدخله ثم هبط للكهف وسحبه للداخل. كان أمين واهنًا لكنه تمكن من مساعدة نفسه والهبوط سالمًا.

داواه سعيد، مسح جسده بزيت نجح في استخراجه من جسد عدة ثعابين، كما قرأ على جدران الكهف. وشوى له بعض الأرانب التي التهمها أمين بنهم. ثم صنع له بعض الألبسة من فرائها.

بعد انحسار الحُمَّى، فاق أمين. كان مذهولاً مما مر به. تعارفا، وتبادلا الحكي والكلام. كان قصيرا، هزيل الجسد، لكنه ملأ مكانًا بالكهف. فشعر سعيد بأن شريكه الجديد يأخذ مساحته الخاصة التي اعتاد عليها منذ قدومه. لكنه ذكَّر نفسه بوحدته القاتلة، وفكر أن يعرض عليه فكرة الاستقلال

بكهف خاص به، وأن يتعاونا كجارين في كل شيء.

كان أمين معتاد الفرار والمكوث لفترات طويلة بمفرده، كما كان يفعل قبل القبض عليه. حكى أمين أنه لم يقدم استماراته منذ عامين ولم ينضم للأرض الثانية كذلك. هكذا ببساطة، قرر تجاهل النظام. وقضى معظم الوقت هاربًا متنقلاً من مكان لآخر حتى سأم الفرار وعاد لمنزله، وهناك وشى به أحد وأُمسك به. سأله سعيد في ظهيرة أحد الأيام إن كان يشعر بالندم. فاندهش أمين من سؤاله وتساءل عن سببه. فقال سعيد لأنك تخليت عن النظام فهز صاحبه رأسه نفيا.

كانا يشويان اللحم الأبيض لأرنب ضخم، فقلب أمين الوجبة فوق النار ووضح:

– في يوم ما بعيد، كنت جالسًا أتأمل ظلالي على الأرض، أقيس حجم ظلي مقارنة بحجم جسدي الفعلي. ولوهلة تخيلت أني لست الأصل، وأن الظل ليس انعكاسًا لي. الأصل كان الضوء من حولي. أنا لست موجودًا بالفعل، وكما يتلاشى الظل بزوال الضوء يمكنني كذلك التلاشي. يومها قررت التوقف عن ملء الاستمارات. فكرت أن لو كان لا بد لي الاختفاء والموت، فليكن الأمر بعيدًا عن تلك التفاهة التي نختصر بها أنفسنا ومشاعرنا فوق خانات العقاب. ثم نبتذل إنسانيتنا في حجرات الخطأ ونطلق عليه التطهر.

فقال سعيد متسائلاً:

– ولكن ألم تبتذل إنسانيتك الآن وقد جردت من رتبتك العليا؟

– هم من فعلوا، لكني ما زلت إنسانًا. هل تصدق أنك لم تعد كذلك؟

فكر سعيد كثيرا. كيف استطاع الحياة عاما كاملا دون أي خطأ وكأنه لم يعش. لقد جرد نفسه من رتبته العليا قبل أن يفعلوها بزمن. تذكر مرارا كلام أمين حول حريته في الخطأ كالإنسان الأول، لكنه يرى أنه لم يكن إلا مقيدا، لقد ندم بالضرورة لكنه فقط لم يجد طريقا للعودة.

غضب سعيد من المناقشة واعتبرها خطرًا على إيمانه الذي كوَّنه منذ قدومه للغابة. انفعل ولكنه لم يجد ما يقوله، فتسلق المدخل وخرج من الكهف بأكمله وهو يتلو صلواته وأدعيته. شعر أن ما قاله أمين ما هو إلا إهانة للإنسان الأول. تداعى لذهنه الأب الأكبر حين ترجَّى الإله أن يكون له صُحبة، فجاءت السيدة لتدمر كل شيء وتطرده من الجنة. إنه لم يتمنَ صحبة أمين ليأتي ويزعزع إيمانه بكلمات خاطئة.

سار للبركة واغتسل، بينما الأفكار تجيء وتروح برأسه لا تهدأ. كان يفكر في حكمة الإله الذي أرسل له صحبة كهذه. أيريد له أن يُعاقَب بعد الموت؟ لكن لماذا الآن بعد أن بدأ يؤمن بالعقاب الحياتي الذي حرص

النظـام عليه وغذاه ليكتمل هكـذا؟ حتمًا هناك حكمة وراء ذلك، ولا بد من الوصول إليها.

حين عاد تصنَّع الهدوء وقرر تجاهل أمين. لم يعد يريده معه في الكهف. في الليـل زارتـه بعض الأحلام، اعتبرها رؤية يسترشـد بها، وقضى نهاره يصلي، ثم طفقت بذهنه فكرة مخيفة، تساءل بينه وبين نفسه، أيكون مفتاح الجنة هو الخطيئة الإنسانية المتكررة؟ وتأكد أن إرسال الإله أمين له وراءه رسالة، كما كانت السيدة هي رسالة للأب الأكبر.

نظر لـ أمين الذي كان يجمع الأغصان بالسهل عند قدميّ الجبل. والغابات ممتدة على مدى بصره. كان ما زال هزيلاً يسـهل الانتصار عليه بسـهولة. ازدادت عيناه اتسـاعًا ولمعت. تحسس شريحته الإلكترونية بذراعه وتمنَّى ألا تكون معطلة. بالتأكيد سيأتون إذا أخطأ ليروا إن كان مستعدًا للانضمام إليهـم من جديد. تمنى أن يكون تخمينه في محله. وبدأ يخطط لما لمعت عيناه من أجله.

في الليل، بعد أن سـقط أمين في النوم، أخرج سعيد عضوه المنكمش، عبث به حتى أيقظـه، ثم اعتلى أمين الذي كان غارقًا في النوم بهدوء. قيّد حركته بجسده واستطاع رفع فراء الأرنب الهزيل الذي يغطيه ووجه من الخلف. اغتصبه عدة مرات، ولم يتمكن أمين من النهوض من أسفله لضخامة جسد سعيد بالنسبة إلى جسده.

حين وقف أمام المحكمين مرة أخرى، بعد أن عادوا واصطحبوه لاستجوابه بشأن خطيئته هذه، قال بثقة "لقد رجعت بشريًا ثانية وأريد العودة"

سأله أحد المحكمين وهو ينظر إليه باهتمام:

- ولماذا اخترت تلك الخطيئة الشنعاء لتعود؟

فأجاب سعيد بلا تردد:

- لأنها فعل آدمي.

وبعد مداولات، جاء الحكم النهائي بعودة سعيد، ورجوع رتبته العليا له ثانية. وتصدر الصحف والإعـلام كأول رجل يُطرد ويعود، كالرجل الأكثر إيمانًا من بين الجميع. أما أمين فلم يُعرَف عنه أي شيء بعد ما فعله به سعيد.

3

كانت تدنو من النهاية بخطى مرتعشة. تنهي يومها كل مساء قائلة بهمس لنفسها "من منا لن يموت؟!" ثم تنام وتأمل ألا تصحو. حين عاشت أكثر مما توقعت، قررت كتابة الخطاب الذي لطالما أرجأته. فكرت أن حياتها التي طالت هي علامة، ولا بد من المُضيِّ ورائها. في الوقت نفسه علمت بخبر سعيد. فجلبت قلمًا وأوراقًا وجلست على طاولتها تكتب:

"إلى ولدي سعيد:

كلما لمحت طفلاً باكيًا تحسست معدتي. ألم ما خبطني ولم يفارقني منذ رحيلي. في كل مرة يضرب مكانًا مختلفًا. أتحسس مكان الألم، أربت عليه

بحنو فيرق لوجعي ويصمت. لكني لا أستطيع تدليله حين يبكي طفل. أقف عاجزة أمامه، لا أفهم. وأود احتضانه بقوة حتى يتمكن من الاختباء بداخلي ثانية، فيعود كأن لم يكن ولن يشم الهواء ولن ينتظر سائل الحياة ليرويه.

لم أستطع إرجاعك لرحمي حتى ننسى عناء التجربة، فابتعدتُ صامتة. ظننت ف البداية أن وجودك ضروري لوجودي أنا، لكني أدركت أنك لست امتدادًا لي، إنما أنا الامتداد. أنت الأصل وأنا مجرد هامش. لذلك كان عليَّ تركك لأجدك بطريقتي الخاصة.

دعني أحكي لك، أكلمك حتى لا تتوه كثيرًا أكثر مما فعلت. كانت الخطيئة الأولى التي عوقبت بسببها عدة سنوات متتالية هي عزوفي عن الزواج. كنت أكتفي بإمتاع نفسي في بعض الأحيان ولا أكترث لرجل في حياتي. لا تخجل يا ولدي، فإنك الآن رجل تدرك كيف تسير الأمور. ولقد بلغت من العمر الكثير الذي يجعلني لا أخشى الاعتراف.

كانت فعلتي هذه من ضمن الخطايا الكبرى، وكان عليهم إخماد ثورتي، فتطلب منهم ختاني عدة مرات بحجرة عمليات القطع. هناك يقطعون قطعة من جسدك، آمل أنك لم تمر قط بتلك الحجرة المضيئة كحفرة تطل على الشمس نفسها.

في المرة الأخيرة، ذهبت مرحبة بالعقاب، قدمت جسدي فوق طاولتهم وتمددت بأريحية وأنا أعرض أعضائي الهائلة أمامهم، وددت أن أقول كلما قطعتوا جزءًا "صرت أكثر أنوثة"، لكنهم لم يتوقفوا لحظة أمام جلال المشهد، ومارسوا عملهم بآلية. وقتها أدركت أنهم مقتطفو الأرواح، أجساد مجوفة سائرة فقط في الاتجاهات المحددة لها.

في العام التالي سجل جهاز مراقبتي أني حاولت الانتحار. لم يكن الأمر كذلك، لكني تركتهم يفعلون ما يحلو لهم. لم تكن محاولة انتحار، إنما محاولة فاشلة للغاية للتخلص من جهاز مراقبتي.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم. كنت في السابعة من عمري. لم يكن مسموحًا بالتحدث مع الأطفال من دون السابعة عن أجهزة المراقبة، ويعد ذلك خطأ يستوجب المُساءلة. كنت أرتدي فستاني الأزرق القصير وألهو في شرفة جدتي. نادتني أمي وقبَّلتني وطلبت مني النزول لأبي لأمر مهم. لمحت ضحكة ابنة خالتي الكبرى وأمها تشدها من أذنها لتدخل إحدى الحجرات الداخلية. لم أفهم حينها، لكني شعرت أن أمرًا جللاً في طريقه للحدوث. كان الجميع مبتسمين ويتمنون لي السلامة، عبرت وسطهم ونزلت السلالم بهدوء كأميرة صغيرة في طريقها للتتويج.

كان السلام الملكي من فيلمي المفضل يرن في أذني، فمشيت في الشارع باتجاه أبي بخطوات ملكية ثقيلة. كان صباحًا حارًا وأبي يرتدي قميصًا

بلا أكمام على ناصية الشارع. مسك يدي وسار بي نحو السيارة دون كلام، وهناك داخل مقر العبور، ساعدوني في العبور من عالم الطفولة للعالم الإنساني الأكثر طهرًا، زرعوا جهاز مراقبتي بذراعي أعلى الكوع مباشرة. وظلت الحُمّى مصاحبة لي عدة أيام، حتى أفقت وبدأ تسجيل خطاياي يعمل بدقة.

كنت أكذب داخل عقلي أولاً، أحبك الكذبة تمامًا ثم أتفوَّه بها أمام الجميع بأنفاس هادئة، فلا يسجلها الجهاز. نجحت في الإفلات مرات كثيرة ولم أُعاقب. كان عقلي هو الصديق الذي يقف خلفي. أحببت اللعبة وكرهتها. عشرات المرات أتأرجح بداخلي ما بين شك ويقين، وحب وكره، ومزاج متقلب يرغب في التحدي.

بدأ الأمر بأكمله منذ عشرات السنين، يقال إنهم مائة ويزيدون تسعًا. نجحت ثورة ما حينها، يمجدونها كثيرًا بكتب التاريخ. كان عزيز من فجرها، وأنشأ مجلسًا ثوريًا ليقبض به على جمرات انتصاره.

اعتقلت قوات عزيز حينها رجالاً لم يتمكنوا من الفرار. رجال أصبحوا من الماضي، لكن محاسبتهم ضرورة لأمن الثورة والثوار. في البداية فرض عليهم حظر الخروج من بيوتهم أو الاتصال والتواصل مع أيٍّ كان خارج البلدة، لكن قبضته لم تكن من حديد كما كان يأمل، فاستمرت المناوشات والتسريبات للخارج، فأعدم أحدهم وأبقى على الآخرين لحين اتخاذ قرار ما بشأنهم.

كانـت الحياة وقتذاك ممكنة، كما أخبرني والدي الذي أخبره والده عن كل شيء، أشـياء. حينها تنفس الجميع كـما لم يفعلوا من قبل. وتقدم كبير العلـماء للمجلس الثوري باختراع يزيد من قبضتهم حول رجال الماضي. فبدا كل شيء تحت السيطرة. كان الاختراع هو تلك الشريحة الذكية، نسيج رقيق ذو شرايين تمكنت من التأقلم مع أجسادنا، وكما تعلم لها ذاكرة طويلة المدى تسـجل كل شيء قد يفعله الرجل في يومه. كانت ثورة تكنولوجية موازية لثـورة عزيز الكبرى. ثورات تتبعها ثـورات، مد بلا جزر اجتاح العالم. وازداد الهتاف باسم عزيز بالأرجاء.

أيـن قد يذهب الرجل من نفسـه؟ قد تصيبه لوثـة عقلية وهو يحاول إخفاء فعل ما عن نفسه. واتسعت رقعة الأنسجة الرقيقة لتشمل المعارضين ومؤيديهم وأحبابهم وعائلاتهم وجيرانهم ونحن، جميعنا. امتدت المنظومة وطالت الجميع.

هنـا، في عالمنا الصغير، على بعض النواصي وفوق بعض الجدران، قد تجد نحتًا أو رسمًا لرجل مجهول بلا وجه، يرتدي بدلة عسكرية ممزقة، ويده اليمنى مبتـورة وقدمه بلا أصابع، إنه رمز لذلك الإنسـان المتمرد الأول الذي رفض النظام ونزل لأرض ثانية ثم صعد لسـماء أخرى. نلقي عليه التحية ونَمُرُّ.

كل هذا ملأ رؤوسنا صداعًا. صرنا ندَّخر الخطايا بين جلودنا ولا نعرف

أين نصرفها. كنت أتخبط ذعرًا في طابور تقديم الأوراق. كنت أبكي لأن البكاء غير مسموح به، أفعل كل ما هو ممنوع. أملأ الاستمارات بالخطايا التي حتى لم أفعلها، وأتركهم يتأكدون من جهاز مراقبتي، لأنه لا يمكن لطفلة فعل كل هذا في عام واحد.

لكني رضخت في النهاية وتزوجت. آلمني جسدي المقتطع أكثر من جسدي الباقي. كل قطعة ترحل عني تزورني بأحلامي، أراها تبحث عني، تائهة وسط أجساد كثر كقطعة بازل وحيدة بلا قيمة.

تزوجت أول طارق لبابي. نسيت شكله الآن لكني لم أنسَ أنفاسه الثقيلة فوق جسدي، وأصابعه الرفيعة الطويلة التي تزحف كثعابين بين طياتي. لقد أصبحت متأكدة أنني سأغدو جوفاء إذا سمحت لهم بلمسي مرة أخرى، ولم أكن أعرف أني سأكون موحشة على أي حال.

ثم كنت أنت، مبتهج الوجه. قدرت لك الفرحة، هكذا رأيت مصيرك حين رأيتك لأول مرة، فكنت سعيدًا. حملتك بين يدي ولم أتركك قط، كنت أنت المفضل لي. أجلِسك بجانبي وأغني لك. كنا اثنين وحيدين منبوذين، أعاقب أنا كل عام على تفضيلي لك عن الجميع، وتعاقب أنت من الجميع لكونك المفضل لديّ. كنا كقوسي دائرة ندور معًا ولا نكترث.

عرفت مؤخرًا أنك قد تمردت أخيرًا. تركك لأوراقك خالية لم يكن التمرد الكافي بالنسبة إليَّ لكنه خطوة صحيحة. ما زلت أنتظرك في الأرض

الثانية لترى قصص تمرد وفرار كثيرة. إنها ليسـت أرضًا ثانية كما يطلقون عليها بمقر العبور، إنها الأرض البكر، الأولى. إنها الأرض الحرة التي تليق بك متمردًا اختار مصـيره. فالمتمرد العادي يحيا هنا حرًا فما بالك بمتمرد سعيد مثلك يمكنه أن يطير!

كان رحيلي لك أنت. حين لمحت جسـدك يتأرجح من الشباك كففت عن الغناء، لماذا أردت الموت يا بني؟ سهرت ليلتي أسمع نشيجك أسفل الأغطية. لم أصدق أني كدت أفقدك في لحظات، لولا أني كنت قريبة فجذبتك بشـدة إليَّ. ليلتها قررت الرحيل والانضمام للأرض الثانية وإبطال جهاز مراقبتـي بالطرق غـير الشرعية. كنت أعرف دومًا أن إحباطاتي سـتنتقل إليك وتصيبك، لكني رغبت بشدة ألا أصدق ذلك. رغبت في ألا تلحظ ذبولي وأنا أقدم روحي إليهم عامًا بعد عام، لم يتبق لك شيء. فذهبت لئلا تذبل معي، وانتظرت تمردك لأني على يقين أنك ورثت كل شيء مني، وأني امتدادك بالحياة.

لا تفعل أبدًا ما يفعله الآخرون. لا ترضخ كما فعلت. أراك في أحلامي تفتح بابًا أبيض مليئًا برسوماتك الطفولية الملونة، تقف أمامه وتشير إليَّ فلا آتي. تحـزن ثم تمضي، تعبره بعيدًا. أنـا الآن على الناحية المقابلة من الباب، أنتظرك يا صغيري، وأتساءل إلى أي مدى يمكنك الغفران؟".

انتهت. وبحثتْ عن طريق لإرسال كلماتها. كانت تعرف أن سعيد طُرِد

بالغابة المهجورة منذ زمن قديم. طلبت من كل شخص قابلته إيجاد سبيل لإرسال الخطاب، طمأنها الجميع، لكن بدوا وكأنهم يُسكِّنون مخاوفها فحسب. وبأنفاس قليلة وضعت الورقة أسفل وسادتها. لم تعرف أبدًا بأمر اغتصاب سعيد لأمين، وانتقل الخطاب من يد لأخرى لسنوات كثيرة بعدها.

4

حين وصل صلاح مع حسام للخرائب ليلاً لم تكن كما توقع، ولم يكن الليـل كما الليل. شـعر بأنه في قلب الحياة نفسـها، فالخيـم متراصة أمامه والمتحركـون بكل اتجاه، على عكس المدينة الكئيبة التـي تركها لتوِّه. عالمًا كامـلاً لم يكن لـيراه في حياته أو حتـى في أكثر أحلامه شـططًا. لم يحدث أبدًا أن رأى تجمعات كبيرة كهذه سوى بمقر العبور حين يطول الطابور. كما أنه لا يذكر سـماعه لضحكات عالية بالشـارع، بالكاد يبتسم البعض من حين لآخر إذا حدث ما يستدعي ذلك، وتنتهي الابتسامة سريعًا قبل ظهور الأسنان الأمامية. أما تلك الحياة التي -للمصادفة- أُقيمت وسط خرائب، والتي بناها شـعور زائف كالشك، فإنهم يستحقونها، لأن حتى

الرجل المتيقن الثابت كصخرة جبل شـديد الصلابة، عليه التشـكك من وقت لآخر. كما كان سكنهم بالخيم بالأساس مناسبًا تمامًا لهم كقوم رُحَّل بين عالمين صامتين وبينهما هرج، هذا الهرج الرحب الذي لا يسـعه كلمة صغيرة كـ"بَين".

بخيمة حسام، كان شركاء باقون بالمكان لا يغادرونه، على عكس حسام الذي كان يرهقه الأمل، فينحسر مبتعدًا ثم يعود مرة أخرى، لينضم لجوقة الباحثين عن الأرض الثانية، يرى الخرائط ويسـتمع للاقتراحات ويقدم نفسـه كمستكشف مع البعثات التي تمشـط الصحراء من حولهم. لكنهم في كل مرة لم يجدوا سوى المزيد والمزيد من تابعي النظام.

بالنهـار تجلَّت الصورة أمـام صلاح أكثر. الخيم أكثـر مما ظن والحياة مفتوحة على كل الاحتـمالات. منذ أن أصبح ذلك الخطاب التعيس بيده بعـد رحيل أبيه، تخيل أنه ذلك الفارس الذي وقع عليه الاختيار لمواصلة ما بدأه جده. لكنه بعدما افترش سريره ليلاً وقبل نعاسـه، واجه نفسه بما أنكره دومًا، اعترف أن هذا الخطاب هو ذريعته الجيدة للفرار، وأنه قبله لم يكن سوى جبان. كما مال إلى فكرة أن أباه كان جبانًا أيضًا خصوصًا وهو يعي جيدًا ما حدث لأبيه قبله، لكنه حاول تجاهل الفكرة، وركنها جانبًا. ثم استسـلم للنوم، وحياته الفعلية أمامه تبدأ أخيرًا بعيدًا عن اسـتمارات الخطايا وحجرات العقاب.

انعطفت الحياة بأرض العبور منعطفًا شديدًا بعد عودة سعيد من منفاه. لقَّبوه حينها بالأشد إيمانًا من الجميع، ففرض إيمانه بقدر ترحابهم به. وأصبح الأرنب رمزًا للإله ولمحبته، مكَّنه سعيد تلك المكانة لصحبته بمنفاه، فأصبح بشارة سماوية، ألَّهَهُ وخلَّد المتمرد الأول صاحب الكهف كما لم يحدث من قبل. أصبح من الطبيعي رؤية تمثال لأرنب بعين حمراء نارية في حجرات العقاب، ينظر إليهم بغضب. قدموا له القرابين بالمعابد ليرضى، حتى أن كريمة زوجة صلاح قدمت الكثير ليبقى صلاح برفقتها وينسى أمر الخطاب.

لم يكن أمام صلاح سوى حسام صديقه كثير الاختفاء. عندما استقصى وراءه عرف صلاح أنه يفر للبحث عن الأرض الثانية. ما لم يعرفه هو كيف يعطل برج مراقبته ويهرب ويعود دون القبض عليه. ضحك حسام وقال: "لا نعطله أبدًا لكننا نكتم كل شيء عن أنفسنا".

فهم صلاح ما يشير إليه بعدما قرأ خطاب الأم عدة مرات. تلك المكابدة اللئيمة التي يمر بها حاملو أبراج المراقبة، تلك المعاناة في ملاقاة حجرات العقاب وطوابير الاستمارات والجلوس في مواجهة النفس للاعتراف بكل هفوة، كل خطية، كل زلَّة هو هوة آدمية بلا قرار.

أخبره صلاح عن الخطاب، فقرأه حسام أكثر من مرة. لم يُعقِّب، إنما أخبره أن يستعد باكرًا. وسأله كيف وصل جدك أمين لهذا الخطاب؟

قلب صلاح شفتيه في حيرة وهز رأسه متعجبا. فلم يعرف أحد أبدًا سره.

في الصباح، خرجا متسللين ورأساهما مختبآن داخل غطائي رأس صوفيين. هربا داخل مقطورة تنقل الحبوب والخضراوات ونزلا في طريق جانبي مهجور. وصلا الخرائب سيرًا على أقدامهما بعد مسيرة نهار كامل.

لم يكن للمجموعات بالخرائب قائد، إنهم بائسون فروا من مآسيهم الخاصة ومن الوخزات والآلام بحثًا عن جدوى. إنما رجل واحد يُدعى جابر، هو أقدمهم في السعي وراء ذلك المجهول الذي لم يثبت قط وجوده بشكل حقيقي وملموس. كان بمثابة أب روحي لهم.

ربما كان خطاب الأم هو الوثيقة الوحيدة التي بها اعتراف خطي يدل على وجود ما يسمى بالأرض الثانية بالفعل. لا يعرف أحد مكانها أو كيف تبدو، غير أن بها جدرانًا فوقها رسومات، وبشوارعها نواصي منتصب بها منحوتات لرجل يلقون عليه التحية ويمرون، هكذا كفقاعات صابون مطمئنة ممتنة لحياتها الصغيرة الملونة.

اصطحبه حسام لخيمة جابر، كان شديد البدانة ولا يبرح مكانه منذ سنوات. تفحص صلاح قليلاً ثم دعاه للجلوس. لم يتبادلا الكثير من الحديث، استمع لخبر الخطاب وضمّ شفتيه ثم تساءل عن ما يريده الآن

فقال صلاح بتروٍّ أنه لا يريد شـيئًا لنفسه، فقط يريد أن يعلم الناس أن ما أرادوه دومًا موجود بالفعل.

صمت قليلاً، ولاك بشـفتيه شـيئًا ما غامضًا، اعتقد صلاح أنه اجترَّه كجمـل من حدبته الأمامية. كان يفكر بعمق ووجهه مهموم كمن لا يجد مخرجًـا من داخل حفرة. ثم مال برأسـه قليلاً نحو صـلاح بالقَدْر الذي سمحت به رقبته السمينة، وقال:

– أتعرف أننا لم نعد نبحث عن الأرض الثانية منذ زمن؟

– لكن ما أعرفه أن حسام يمشط المكان من حول...

قاطعه جابر:

– حسام لا يفعل شيئًا جادًا، ولم يعد أحد ينتظر أي شيء.

– إذًا لماذا بقيتم هنا؟

– لأننا قطعنا دربًا طويلاً نحو الحرية. النظام اليوم مُترهِّل، يعتمد على قرابين خراء الأرانب، ولم يعد متعصبًا بشأن استمارات العقاب.

– لكن أبراج المراقبة ما تزال في أجسادكم!

شرد جابر ببصره بعيدًا وكف عن الحديث. كان جالسًـا أسـفل طاقة عريضة في قماش خيمته تسربت منها رقعة صغيرة من الشمس على نصف

جسده المقابل لها. حين أشاح بوجهه عن صلاح، غمرته الشمس بالكامل، فظهرت تجاعيده وأسنانه الرمادية النَخِرة المختبئة داخل فمه، المنتفخ المتطابق حد الالتصاق، لكنه فرغه وتمتم حين همَّ صلاح بالرحيل أن لا رجاء من الأمل.

فرغ صبر صلاح وقال محتدًا "لقد اختطف سعيد المرسل جدي وعذبه ليحصل على هذا الخطاب. لا أعلم ما وصل إليك وأنت في خيمتك هذه. لكننا كعائلة نحمل ذلك الإرث الثقيل، وقد قررت أن أُظهِره أخيرًا للناس من أجل أمين.

وخرج غاضبًا من الخيمة ينوي نشر الخطاب بين مجموعات الخيم. مضى أيامًا يجادل حسام حتى كادت مناقشتهما تثقب السماء فوقهما، ثم أشاعا خبر الخطاب بين الناس.

مجموعات متصلة على عزلتها، يشيرون للغرب أو للجنوب، ما خلف الغابات، ما خلف الخرائب، ما خلف البحر. اسم "أرض ثانية" ساهم في صورتها المختبئة وراء شيء ما عظيم. اقترح أحدهم أنها أرض "ثانية" أي أنها أسفلهم، طبقة سفلى تحت طبقتهم، واقترح الحفر بعمق مئات الأمتار للبحث. أصبح الخبل على رؤوس البعض والدهشة حلَّت فوق رؤوس الآخرين. يعود بعضهم لأرض العبور ليقدموا استماراتهم ويتلقوا عقابًا ويقدموا قربانًا للأرنب، لأنهم بحاجة إلى مقدس أمام نظرهم، أو لأنهم

يتجنبون تسجيلهم بقائمة الهاربين. كانوا كالحواة، يتمسكون بكل المواقف كي لا يخسروا، يقفزون على حبال هاوية مشدودة ما بين أبواب حجرات العقاب وبوابات الخرائب المحملة بكل متنفس.

لم يقف صلاح لحظة ليفكر فيما فعله خطاب أم سعيد الذي كتبته بأيدٍ محتضرة، ومضى سعيد آخر أيامه يهلوس بأسئلة عنه. وكأن كل ما لاقاه من منزلة رفيعة لم يكن كافيًا ليرقد بهدوء، وأن خطابًا تعيسًا وحيدًا من أمه لكان أجدى له. خطاب الموت كما أطلق عليه جابر.

تمادت الجموع في بحثها ولم تخفت الأصوات أمام أي صوت عاقل، وحين قال جابر بأن لا أرض ثانية سوى هنا، طعنه أحدهم طعنة قاتلة في ليلة هادئة. لم يشعر به أحد. وجدوه مقتولاً بعد ظهيرة اليوم التالي من مقتله. ودمه وشحومه وهمومه سائلة بجانبه، وقد نحف جسده كأنه خف تمامًا ليساعد الروح في تحليقها.

وتشتتوا في كل الاتجاهات، على رأسهم صلاح الذي تبع كل مجموعة لمدة من الزمن. مُتذكِّرًا دومًا جده وظهره المحني في خيبة، ونظره المنخفض وكأنه يبحث عن شيء. أمين الذي ولجه سعيد بالقوة وفرَّ بالغابة على غير هدى، أمضى أيامًا يهذي ويسير بدروب مجهولة، ويحك مؤخرته بالصخور والأغصان والرمال والشمس ليدميها ويطهرها بالدم.

انعطف عدة منعطفات، فوجد كوخًا صغيرًا على مشارف إحداثيات

ممحوة، كوخ من خارج الزمان. طرق بابه والخذلان يتساقط على الخشب غير المطلي. طلت عجوز من خلفه وفتحت بابتسامة هادئة، ظنت أنه ساعي بريد هاجمه حيوان ما، فقدمت كل شيء يمكنها تقديمه، الطعام السائل والصلب والشراب الدافئ والساخن، وطببته بأنفاس قليلة ويد مرتعشة. ثم نامت ولم تفق، لم يسعها الوقت لتحكي له عن ولدها الوحيد الذي خلَّفته وراءها لتتشابك مع العالم الحر وتحيا من جديد. كان الخطاب بيد أمين حينها، لكنه لم يقطع وعدًا، لذلك لم يخلفه.

انعطف ثانية خارج البيت، سار وفقًا لحدسه، حتى عاد لكهفه بالغابة، عاريًا إلا من كلمات الأم، وبفمه طعم الحامض الذي ألهب فوهة معدته. قُبِض عليه ثانية بتهمة اللواط. فكان الخطاب هو ما استخدمه ليُغضِب سعيد ويقلق رسوخ مكانته. لم يصدقه سعيد بالبداية، ولم يحضر جلسات محاكمته. لكن حين عرف أن أمين وصف أمه لجميع المُحكِّمين الذين جلس أمامهم، ركض حيث كان. لم يجد سعيد الخطاب، ولم يعترف أمين بمكانه مطلقًا رغم كل ما لاقاه. كان مخبأ بعناية أسفل جذور شجرة كبيرة بالغابة. ومضى أمين يحلم بنثر رماده بعد الموت ليحلق كما لم يفعل قط في حياته، لكنهم لم يستطيعوا تنفيذ وصيته، لأن النظام يمنع المحتضر من ترك وصية.

خطاب الموت انتقل من يد ليد، تسلمه يد محتضرة بلغت اليأس ليد على

وشك الرحيل لم يتعبها الأمل بعد. ولم يتبق سوى بعض شرائح إلكترونية لينة بأذرع الناس بالمدينة، وبقايا خيم متراصة بقلب الحياة، في أرض أُطلق عليها ضمنًا "الأرض الثانية".